

المحور السادس

مجادلة الرسول في أحقيته بالنبوة ، وإفحامهم بالحجة

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَعْمِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌّ عَلَى أَنْ يُخْلِقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100)

قوله (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَعْمِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌّ عَلَى أَنْ يُخْلِقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100))

(93) نقل القرآن تحديات الكفار للنبي ﷺ بقصد إبعازه وليس بقصد إظهار الحق ، فطلبوا منه الإتيان بمعجزات حسية مادية من اختراعهم وعلى تفصيل ما طلبوه ، فمن حيث المبدأ إن أجاب فئة منهم للمعجزة التي طلبها ، فعليه أن يجيب الفئة الأخرى في المعجزة الثانية التي يطلبونها بخلاف الأول وهكذا لن ينتهي جدالهم المادي العقيم ، إذ لو أرادوا معجزة ، فالقرآن بمنهجه هو المعجزة في ذاتها .

وهذه السفسطة منهم تنبع من فكر تعفن بالنظرة الشخصية للنفس المنغلقة على تعظيم الذات ، لتتمحور القضية في تعمير الدنيا لأجل التمتع الآني وحسب ، فتقزمت القضية لديهم لتصبح مجرد استعمار عاجل للأرض ، وارتشاف عجلان للمتعة الحالية .

من هذا المنطلق الضيق، وقف أصحاب هذا الرأي يتحدثون الرسول ﷺ ، مطالبين إياه بحضارة مادية باذخة تُخلق من عدم؛ محاكاة لما أوتيته نبي الله سليمان —عليه السلام— حين سُخرت له الرياح، ودانت له الجن، وانقاد له الطير يأتمرون بأمره. فهل طُوِّعت السنن الكونية للنبي الخاتم ﷺ ليفجر في بطحاء الجزيرة العربية القاحلة أنهاراً متدفقة، تُحِيل رمضاءها جناتٍ معروشة بالنخيل والأعناب تُنافس غوطة الشام؟

كلا، لم يكن ذلك ولن يكون؛ لأن إعمار الأرض في شريعة الإسلام عبادة كادحة، لا معجزة طائرة تنشق في ومضة عين. إنها استباقٌ بالعمل وسعيٌ دؤوب بالهدى النبوي لبناء الحياة. فلو هبط هذا الإعمار رغداً هنيئاً بلا كدٍ ولا

نَصَب، وبلا عرقٍ ولا عمل، لتبخرت غاية الاستخلاف في الأرض، وارتدّ الدين قشراً باهتاً، وإيماناً معطلاً يفرغ العقيدة من جوهرها الحي".

كما تحدوه أن يأتيهم بالعذاب العاجل فينزل عليهم صاعقة من السماء ، أو جند من الملائكة لتقلب قراهم ، فاستعجلوا العذاب تبكيئاً وتحدياً. وما انبعث هذا التحدي إلا من نظرهم القاصرة إلى النبي ﷺ ؛ إذ رآوه بشراً سوياً يعيش عيشة البساطة، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، بلا مالٍ مكنوز، ولا قصورٍ مُزخرفة، ولا مظاهرٍ ملوكية. ولما لم يأتيهم بمادية المعجزة في عروجه إلى السماء بعد مسراه، أرادوا محاججته، فأتوا بحجةٍ انقلبَت عليهم؛ إذ أعلنوا استعدادهم للتصديق برحلي الإسراء والمعراج، ولكن شريطة أن ينزل عليهم بكتابٍ مكتوبٍ من ربه يقرؤونه بأعينهم، ويشهدون نزوله من السماء عياناً، ليكون برهاناً قاطعاً على وحيه. بيد أن نفوسهم الجاحدة كانت لتمتنع حتى لو تحقق مرادهم؛ كما قرر القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الأنعام: 7)

وهكذا، حاولوا قسراً معجزة القرآن المعنوية الخالدة وتحويلها إلى مطالبٍ ماديةٍ عابرة، فجاءهم الرد الإلهي الحاسم الذي لُقنه النبي ﷺ مبدداً أوهامهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ .

قوله (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) (94) (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) (95) «يسبر المولى -سبحانه- عن الأسباب الحقيقية التي جعلت قريشاً ومن حولها تُبطئ عن الإيمان برسول الله ﷺ ؛ إذ استنقلوا أن تنال صفة "البشرية" مقام النبوة والرسالة، متزعمين أن الملائكة أولى بذلك من البشر. وهي حجة -وإن بدت في ظاهرها مقبولة- إلا أنها في سياقها تفصح عن استكبار وإباءٍ للانقياد لمن هو من جنسهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: 7).

وجاء الرد الإلهي قاطعاً بأن الرسول لا بد أن يكون من جنس قومه ليتحقق به التآلف والافتداء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]. فالملائكة يُرسل إليهم ملكٌ منهم، والبشر يُرسل إليهم بشرٌ مثلهم؛ إذ الاستطاعة في التأسي منعدمة بين جنسين مختلفين؛ لأن الاستطاعة مناط التكليف ، وقدرات الملك بخلاف قدرات البشر ، فالملك لا يأكل ولا يتزوج ولا يعترهم ما يعترى البشر، فاستحال حينئذ أن يتخذ البشر الملك أسوةً في تفاصيل حياتهم، من هنا يكون الإسلام قد أبان عن طبيعة منهجه ، بأنه منهج تطبيقي عملي ، وليس مجرد فلسفة ذهنية وقواعد نظرية ومنطقية للتفكير وحسب .

قوله (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (96) ، أي اسمعوا كلام الله ليكون شهيدا لي على رسالتي ، فالقرآن حجة للرسول والرسول حجة للقرآن ، أي كلاهما يصدق الآخر ، فمن تأمل في سيرة الرسول يجده وكأنه قرآنا يمشي على الأرض ، ومن تلا القرآن وتدبره لآمن بالله وملائكته ورسله ، وبالرسول محمد ﷺ تفصيلا ، وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، أي أنه يستشهد بكلام الله فهو الحكم بينه وبينهم ونظير ذلك قوله (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد 43).

روي عن علي بن أبي طالب قال (كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَيْرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِظُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ إِذْ سَمِعْتُهُ حَتَّى قَالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ) مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)¹

قوله (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ) نسب الهدى إلى الله ، والضلال إلى صاحبه ، ويلاحظ هنا أن الآية تحدث عن المهتدي والضال ، فتحدثت عن المهتدي بصيغة المفرد ، بينما تحدثت عن الضال بصيغة الجمع (فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ) يقول الشعراوي (لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، أما في الضلال ، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع : (فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ ..) لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . .) [الأنعام : 153] والنبي ﷺ حينما قرأ هذه الآية خَطَّ للصحابه خَطًّا مُسْتَقِيمًا ، وَخَطَّ حوله خطوطاً مُتَعَرِّجَةً ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابي » إذن : الهداية طريق واحد ، وللضلال ألف مذهب ، وألف منهج؛ لذلك لو نظرت إلى أهل الضلال لوجدت لهم في ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص في الضلال . فعليك أن تقرأ هذه الآية بوعي وتأمل وفهم لمراد المتكلم سبحانه ، فلو قرأها غافل لقال : فلن تجد له أولياء من دونه ، ولأتبع الثانية الأولى ، ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهي التي وضعت كُلَّ حَرْفٍ في موضعه)² .

كما تبين الآية حظ المؤمنين من الدنيا ، فهم في ولاية الله تعالى لأنهم مهتدون ، قال تعالى (إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) (الأعراف/196) ، والضالون ليس لهم أولياء من دون الله ، يقول سبحانه (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (الأنعام/125) ، فالحالة النفسية للكافر الشعور الدائم بالوحدة والخذلان ، وعدم الثقة في الآخرين ، لأنه ليس له ولي دون الله تعالى ، فلما كفر بالله لم يجد من ينصره ويؤازره ، فيعيش في تلك العزلة النفسية والانكسار المعنوي والدلة الحقيقية ، يقول سبحانه (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) (الحشر/14) .

قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) (97) فعن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ "إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه"³ ، (والحكمة في حشر الكافر على وجهه أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب على وجهه في القيامة ؛ إظهاراً لهوانه)⁴ .

¹ رواه الترمذي ج10 ص 147 رقم 2831

² تفسير الشعراوي ج1 ص 5317

³ رواه البخاري ج8 ص 492 مسلم ج4 ص 2161 رقم 2806

⁴ (إعداد : د. عيسى بن عبد الله السعدي : آثار المثل الأعلى ج1 ص 52

قال ابن تيمية (فَأَخْبَرَ أَنَّ الضَّالِّينَ فِي الدُّنْيَا يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا فَإِنَّ الْجَزَاءَ أَبَدًا مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ)¹ وكأنه يريد أن يشير إلى أنهم كانوا يتكبرون ويعرضون بوجوههم عن سماع كلام الله ، وينأى كل واحد منهم بجانبه في الدنيا عن الإقبال على رسول الله ، فكان جزاؤهم من جنس فعلهم أن جعلهم الله عميا وبكما وصما بل وحشرهم على وجوههم بعدما كانوا يرفعون رؤوسهم تكبرا على الناس

قوله (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) (98) تُجَلِّي هذه الآية الكريمة سُنَّةَ إلهية ثابتة؛ وهي أن الجزاء من جنس العمل . فبينما كان هؤلاء المشركون يُنكرون قدرة الله على البعث، ويتكلمون بدعوة النبي ﷺ مستبشرين إحياء العظام والرفات، قابلهم الله جل وعلا بما يُشاكل صنيعهم؛ إذ يحشرهم يوم القيامة على هيئة ذليلة تُظهر كمال قدرته وانكسار شوكتهم، جزاءً وفاقاً لتهكمهم واستكبارهم.

إن هذا الإنكار الذي حوسبوا عليه لم يكن وليد جهل حقيقي أو خفاء في الدليل، بل هم يدركون الحق بقلوبهم ويستيقنون، لكنهم جحدوا به؛ فالكفر في أصله تغطية للحق . لقد تعمدوا ستر الحقيقة وراء ستار زائف من ادعاء الاستغراب، واصطناع عدم الاستيعاب، استخفافاً بالوعيد وتكذيباً بالحق بعدما تبين.

قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ) (99) يحتج الله تعالى عليهم بخلقه لما هو أكبر منهم وأشد قوةً — وهو السموات والأرض —، فمن ذا الذي يخلق الخلق ثم يميتهم ويفنيه لينهي أمرهم بلا بعث ولا نشور؟ إن هذا التصور القاصر لا يفضي إلا إلى العتب، وحاشا لله أن يخلق الخلق عبثاً؛ إذ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: 16]، فمن الضلال أن يظن المنكرون أن لا حساب هناك ولا جزاء.

قوله (... فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا) (99) أي: بعد ما تجلّت نعم الله تعالى واستبانت للإنسان، أبى الظالمون منهم أن يشكروا المنعم على آلائه، بل قابلوا الفضل بالنكران، وأوغلوا في الجحود بما إيعال؛ ولذلك جاء اللفظ صيغةً مُبالغةً ﴿كُفُّوا﴾ لدلالة على شدة كفرهم وتماديهم فيه.

قال أهل اللغة (الكفر في أصله هو جحود النعمة وعدم الاعتراف بها، وهو النقيض المباشر للشكر. و"الكفر" من السَّتر والتغطية؛ فالكافر بالنعمة يجحدها ويستترها، وسمي الكافر بذلك لأن قلبه مُغطى)² . وبناءً على ذلك، (فإنَّ الجحود لا يَقَعُ إِلَّا مِمَّنْ عَلِمَ الْحَقَّ أَوْ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ ثُمَّ رَدَّهُ؛ فَعَلَهُ الْكُفْرُ — لُغَةً وَشَرْعاً — تَسْتَلْزِمُ إِذْرَاكَ الْمَكْفُورِ بِهِ أَوْ الْقُدْرَةَ عَلَى إِذْرَاكِهِ، ثُمَّ تَبْذُهُ وَجَحُودُهُ).³

¹ مجموع الفتاوى ج 18 ص 175

² مختصر كلام ابن منظور في لسان العرب ج 1 ص 3458

³ تيسير العزيز الحميد شرح كتاب الحقائق في التوحيد لأبي مارية القرشي ج 1 ص 60 مع بعض التصرف

قوله (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) (100) كشفت هذه الآية عن الغاية الأسمى لبعثة النبي ﷺ ، وتكليف عصابة المؤمنين بالسعي الحثيث نحو التمكين في الأرض. فالتمكين للمؤمن عدلٌ ورحمة، بينما تمكين الظالمين مفسدةٌ ومظلمة تضيق بها العباد والبلاد. ومن هذا المنطلق، بات لزاماً على أهل الإيمان ألا يُؤَلَّوا الشأن العام أو معاهد المسؤولية من كفر بآيات الله ونعمائه؛ إذ كيف يؤتمن على مصالح الخلق من جحد حق الخالق؟ فالكفر التواء في الفطرة، وجحود للنعم، ومن شحّ بقلبه عن الاعتراف بالمنعم، كان على حقوق العباد أشحّ وأجمل. ولو قُدِّرَ لهؤلاء بسط اليد والولاية، لَحَبَسُوا الحقوق عن أهلها خشية الإملاق، ولأفسدوا ميزان القسط؛ فَمَنْ أشرك بالله وصرف أقدس الحقوق—وهي العبادة—لغير مستحقها، حرَّيَّ به أن يضع الأمور في غير نصابها، ويحرم المستحقين من فضائل الاستخلاف.

وهكذا يعلل القرآن سبب أن الله جعل النبوة في العرب ولم تكن في بني إسرائيل كما كان الحال من قبل ، لأن أخلاق العرب تفوق أهل الكتاب في الكرم والسعي لنشر الدين والتضحية لأجله بالمال والنفس ، قال القاسمي (وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم ، وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متنافرون؟)¹.

واستدراكاً على ذلك يجوز استعمالهم تحت إشراف صاحب الولاية المسلم ، أما أن يكونوا هم أولياء على المسلمين فليس ذلك بصحيح لقوله تعالى ، ولذلك قال تعالى (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) (النساء/141) وذلك هو سبب الصراع السياسي ثم العسكري بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، وفريق المؤمنين يسعون للتمكين في الأرض لإعطاء الحقوق لأهلها ، وفريق الكافرين يسعون للتمكين لتعظيم أنفسهم وثرواتهم ونفوذهم وسلطانهم على حساب الضعفاء والفقراء ، لا سيما وأنهم يكفرون بالبعث والحساب والجزاء ، فيظنون أنهم يفعلون ما يفعلون ولن يحاسبهم أحد .

¹ (تفسير القاسمي